من سلسلة
حكايات على ضفاف الخليج
زهـــرة
الأرخبيـــــل
تــأليــف
محمد عبد العزيز أحمد الباكر
الطبعة العشرون يناير 2008
إهـــداء

إلى ظبية مراكش
الأميـــرة نـــور المهـــدي
أهـــدي هـذا العمـــــل

محمد عبد العزيز أحمد الباكر

]
المقــدمة
تتضاءل كل أنواع المشاعر الإنسانية وتضيع في نهاية الأمر حين يبتلعها النسيان ويمحوها الزمن.
وتتبدل كل تفاعلات النفس الإنسانية وتتراوح بين التوهج والذبول تحت مطارق الزمن وتوالي الأيام.
إلا مشاعر العشق التي ما إن تنفجر ينابيعها حتى تجرف أمامها الغراس القيمي للنفس عبر تاريخها الإنساني الطويل وتتضاءل أمامها كل النزعات والخصائص والرغبات .
عجيب أمر هذه النفس وسبحان الذي خلقها فسواها وألهمها فجورها وتقواها .
والتـاريـخ هنـا يسجـل وحين يسجـل التـاريخ فـلا مجال سوى التسليم والإقـرار.
فهذا هو أول حادث سجله تاريخ الإنسان العاشق حين وقع قابيل أولى وثائق العشق بدم أخيه .
وتلك هي المرأة التي ثبت عشق الرجال لها وحبه الأزلي إنها قطعة من روحه وقلبه. خلقها الله تعالى من ضلعه لتكون الوعاء الذي يذوب فيه عشقا وهياما ورغبة، فقال جل وعلا في محكم التنزيل {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (الروم:21)
ومنحها الله قوة أسرة هائلة تتضاءل أمامها وحشية الرجل وقوته وإرادته وهذا هو أغور شاعر الهند الكبير يقول : إذا أراد الرجل أن يسكر، فويل له إن شكر من قلب أراده.
ومن أصدق من الله قيلا، فهذا رب العزة يصف مكر النساء في سورة يوسف بالعظمة في قوله تعالى: {إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ} (يوسف: 28)
ولكن رحمة الله بعباده أوسع قال تعالى : {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ } (الأعراف:156) ، وقال تعالى : {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً} (الطلاق:2) ، نعم من يتق الله يجعل له مخرجا في كل سوء حتى ما عظم من كيد النساء .
المـؤلـف
لقــاء العشــق
في الطابق الثالث المطل على المياه اللازوردية المنبسطة والممتدة في عمق لا نهائي كوشاح حريري ازرق يلاعبه الهواء بنسماته الخفيفة الحانية ، والشاطئ الممتد برماله البيضاء الناعمة التي تحتضن مياه البحر ، والموشاة بأشجار النخيل الباسقة وتناثرها الساحر على الشاطئ من نافذة غرفتي كان المنظر في بواكير الصباح الأولى أشبه ما يكون بالحلم الذي يتمنى المرء لو انه لم يفق منه أبدا ، كان المنظر ساحراً لدرجة أنني لم اصدق عيناي وهي تحتوي هذه البانوراما الإلهية العظيمة ، وكان الأمر أشبه بسيمفونية موسيقية رومانسية صامته تعزفها الطبيعة بجمالها .
وفي السلام الإلهي العظيم كنت أقف مشدودا مسحورا أتمنى في داخلي لو توقفت تلك اللحظة وتجمد الزمن فيها لتظل داخل روحي ونفسي ما بقيت الحياة ، وتلك هي الحقيقة حتى لا يتبادر إلى الذهن أن حالة العشق التي أعيشها هي التي تتحدث وتصف هذا المنظر هناك أو هي انعكاس لحاله مزاجية أعيشها نعم ! لقد كانت حقيقية بكل أبعادها ، وربما لا أبالغ إن قلت أن هذا المنظر الرائع بمياهه وشاطئه ونخيله وهدوءه تتضاءل أمامه أجمل أوصاف شواطئ العالم من اللازوردي في كان بفرنسا إلى شواطئ جزر الكاريبي بسحرها وجمالها .
والأمر الآخر أن ما كان يميز الحياة هنا وعلى هذا الشاطئ البساطة والطيبة والأدب الجم الذي يتحلى به أهلنا هنا ، وروحهم السمحة المضمخة بعبق حضارة عريقة وخلفية تاريخية تقترب من عالم الأساطير .

انعكس كل هذا على التي تتوق إلى مجهول تحبه وتعشقه وأنا انتظر لقائي الأول مع حبيبتي ، مع تلك المرأة الساحرة التي سيطر حبها على عقلي واستولي على حواسي وأسر روحي بصورة كاملة ، كان موعدنا في الثامنة صباحا ، ولم أشأ مغادرة غرفتي لتناول الإفطار في مطعم الفندق حتى استمتع بهذا المشهد الأسطوري الآسر مع إفطار شهي رغم الرغبة الضعيفة في تناوله إلا إنني سرعان ما تناولت بعض حبات الفاكهة الطازجة وكوبا من القهوة السوداء القوية .

كان انعكاس ذلك الشيء الأسطوري الرائع على نفسي كلهفتي للقاء حبيبتي يشعرني بتوتر خفيف كنت أهدئه بسيجارتي التي لم تفارق أصابعي بعد .

وبعد تناول القهوة وفي الثامنة تماما دق هاتفي ، ومع هاتفي دق قلبي بعنف حين كانت حبيبتي تعلن أنها وصلت بسيارتها إلى مرآب الفندق وستوافينني إلى غرفتي بعد دقائق وهي دقائق قضيتها في الحركة واقفا ومتنقلا على قدمي بين باب الغرفة والنافذة .

وبالفعل لم تمض دقائق قليلة مرت على كأنها الدهر دفع باب الغرفة الذي تركته مغلقا لكن دون مزلاج برفق وأطلت حبيبتي ، ولم أفق إلا بعد وقت لأجد دموعي ودموعها تمتزجان فوق وجهينا ، وأيدي كل منا تعانق الآخر وتضمه إلى صدره في قوة وحنان .

لم تتحدث ربما لمدة ربع ساعة أو يزيد قليلا سوى بهمسات الحب الممزوجة بنشيج بكاء يجسد نهاية الحرمان الحارق .

كنا معا في حالة من النشوة منعت كلينا من ضياع أي لحظة من لحظاتها في أي حديث ، وكنت اعلم - كما كانت تعلم - إن وقت لقائنا محدود خاصاً بالنسبة لها هي ، وهو الأمر الذي كان يولد الحسرة في قلبينا معاً ، هنا بدأت معالم المستقبل الصعب تتضح بأبعادها المأساوية .

قالت لي وهي تمسك بوجهي ين كفيها ودمعها تغسل وجهها في اشارة إلى أنها لا تريد الوقوع في الخطأ معي، أرجوك تفهم موقفي .

قلت لها: حبيبتي بدون رجاء افهم موقفك، ولن يكون لك مني إلا كل ما تحمله نفسي ونفسك من أنبل المعاني والقيم.

ألقت برأسها في صدري وهي تنشج كمواء قطة سيامية : إن علاقتي بك هي الحب الحقيقي الذي لا أريده أن يتشوه أو يتلوث وسوف نكون لبعضنا يوماً ما ، وعلينا أن نتحلى بالصبر .

نظرت عبر الغرفة في صمت بينما هي مستكينة برأسها على صدري وقلت لها: احبك.. أعشقك .

كان اللقاء الأول صبيحة هذا اليوم مفعماً برومانسية هائلة، وبعد العاشرة ودعتها حتى باب الغرفة، وهي تتشبث بي باكية على أمل اللقاء مرة أخرى بعد الظهر في أحد الأماكن العامة نتناول فيها معاً طعاماً خفيفاً ونعيش لحظات العشاق الحقيقية.

تفاصيـل صغيـرة

على الجانب الآخر كانت المرأة الشابة التي نشأت وترعرعت في غياب الأب بعد رحيله وهي لازالت طفلة لا تدرك الحياة في بيت آخر وتحولت رعايتها إلى كنف زوج أمها ، وهو ذلك الرجل الميسور الحال ذو الوجاهة والمكانة الذي تزوج من تلك الأرملة الشابة عريقة الأصل والمنبت بعد رحيل زوجها، رغم أن له زوجة أخرى رزق منها بالعديد من الأولاد الذي تقبلوا زوجته الجديدة وابنتها كالعادة بحذر خلال الشهور الأولى ومن ثم أصبحت الأمور طبيعية بين الزوجين ، وكانت زوجة الرجل الأولى تكبرها بالعمر وبذلك أصبحت الطفلة شيئا فشيئا إحدى عضوات الأسرة الكبيرة تلقى الرعاية والحب والحنان أسوة بباقي الأولاد حتى أنها لم تشعر بفارق يذكر كان يميزها عن باقي أبناء وبنات زوجة أبيها.

لكن رغم هذا كان هناك الشعور الواقعي القهري الذي لا يمحى من العقل الباطن ، وهو ذلك الشعور الخانق الحزين بغياب الأب الحقيقي الممتلئ بالحنان الأبوي الحقيقي ، لقد كانت تشعر في قرارة نفسها وفي أعماقها أن ذلك الرجل الطيب الحنون بكل عاطفته الصادقة في الحنو عليها وتلبية مطالبها ليس الأب الحقيقي حيث تفتقد التواصل الروحي الطبيعي الذي خلقه الله سبحانه وتعالى في إعمال الشعور الأبوي والبني ، كانت تكتشف ذلك حين تجد إحدى بناته تحتضنه وتقبله ويبادلها ذلك في صدق ظاهر وحنان حقيقي لدى عودته من سفر أو صبيحة يوم عيد أو في لحظات المرض .

وكان الرجل يفعل ما بوسعه في تلك الحالات حتى لا يشعرها بفارق أو تمييز بينها وبين الأخريات ، إلا انه يظل رجلاً غريباً عهنا وتظل هي تشعر بذلك ، وعادة ما تتغلب أمور الحياة وجبروتها على تلك الأحاسيس التي ربما يعتبرها البعض صغيرة وتافهة بينما هي في واقع الأمر شيء عظيم الأهمية

يظل محفورا في ذاكرة النفس البشرية وفي العقل الباطن والمشاعر حتى تأتي اللحظات التي يظهر فيها في صور متعددة كالنقص في مشاعر الحب المتبادل والعاطفة الطبيعية المشبعة بالحنان الحقيقي .

لا شك أن الجانب الثقافي الروحي المشبع بالقيم الدينية العظيمة حول اليتيم يعالج جزئيا هذا الجانب ، وتظهر الحكمة في هذا الأمر من خلال التشديد بالنص والتشريع والسنة المطهرة على العناية باليتيم وإظهار أقصى صورة التعاطف معه وهذا من ابلغ آيات العظمة في الإسلام ، إلا أن الحقيقة تظل هي الحقيقة وهي أن وجود العلاقة الأبوية الحقيقية بين الرجل وبناته على الأخص في مجتمعاتنا المحافظة المشبعة بالقيم الدينية العظيمة يبقى العامل الحاكم في ردف النفس الصغيرة وإخصابها وإشباعها بمشاعر متوازنة وطبيعية دونما خدش أو تشويه .

في ظل ذلك كله نشأت الفتاة وترعرعت وكانت تبدى ذكاء في دراستها تشهد بها نتائجها عاماً بعد عام وليزداد معه نضجها الأنثوي وتبدو معها ملامح جمال عربي أخاذ وروح مرحة يشتد مرحها أحيانا في لحظات إحساسها بالحزن في محاولة ربما لمحوه وإزالة كابوسه عن نفسها الرقيقة المتعطشة للحنان والحب ومشاعر الأبوة الحقيقية المفقودة .

سنوات مرت تراكمت خلال مرورها داخل روح الفتاة ونفسيتها ثقافة وخبرة صقلت حسنها وجمالها وشبابها ووصلت بها إلى المرحلة الحاسمة من عمرها والتي تفرض الزواج حاجة ضرورية و طبيعية ، ومن خلال العلاقات الأسرية والاجتماعية تقدم ذلك الشاب ليقترن بها

، وتم ذلك بالفعل في شكله المعروف وهنا تبدأ المشكلة أيضا في الظهور من خلال التباين في التركيبة النفسية والثقافية بينها وبين زوجها الذي أخذت مساحته النفسية في الاتساع بينهما.
وبالطبع كانت العلاقة الزوجة علاقة عادية ليس بها من خصوبة المشاعر أو دفئها إلا ما يميز أي علاقة زوجية رتيبة مملة وشيئاً فشيئاً يتجه الزوج إلى
اهتماماته الخارجية ونقصد هنا خارج المنزل من خلال ضرورات عمل أو هامشيات حياة كالسهر مع أقرانه والسفر معهم .
تلك نقطة خطيرة في أساس العلاقات الزوجية حيث يقوم المفهوم الأساسي والخاطئ بالطبع على اعتبار أن الهدف الرئيسي هو الزواج ومادام الزواج قد تم فلا مشكلة بعدئذ قد تؤرق الزوج ، رغم أن اهتمام الزوج من الجانب الإنساني بالطبع وتخصيب العلاقة الزوجية من خلال التواصل النفسي والعقلي والجسدي وبالطبع الروحي مع الزوجة والذي تقع مسؤوليته بالدرجة الأولى على الرجل يمثل أهم الأسس الصحية والصحيحة لاستمرار الدفء الإنساني وبناء أسرة سليمة صحيحة تشكل المدخل لبناء مجتمع قوي صحيح ومتماسك .
كانت روح الزوجة الشابة تموج بالمشاعر والدفء والأحلام تجاه زوجها ، ولكنه لم يكن على مستوى مقابل حتى من الفهم لذلك ، كانت هي تحلم بزوج يغوص داخل روحها ليستخرج كنوز مشاعرها الفياضة ، كانت تحلم بزوج يعيد إليها ما فقدته من حنان اقرب الرجال إليها منذ رأت نور الحياة وهو أبوها .
كما كانت تحلم بأن يعيد إليها أمانها وطمأنينتها اللتين فقدتهما منذ بدء حياتها ، لكنه لم يكن قادراً على فهم كل تلك الإشارات وكان الأمر يختزل داخله في توفير عيش كريم وحياة مادية ميسورة ، وهذا هو كل ما يفهمه ، إضافة إلى إنجاب الأطفال وأداء دور شكلي فقط أما العواطف والمشاعر فقد أنهى عمرها الافتراضي بالزواج وهنا يكمن الخطأ الأكبر ، وربما الخطأ القاتل الذي يسلب الحياة سعادتها ودفئها وديناميكيتها بل واستمرارها.
كانت المرأة أنثى جميلة ناضجة كثمرة مانجو اكتنزت بالنضوج فوق شجرتها وكان من المفترض أن تقطفها يد حانية تشتهي طعمها ورحيقها وحين نسيتها تلك الأيدي لم يكن مفر - وكطبيعة الثمار - من سقوطها وهنا يجب
التشديد على الالتزام المطلق بالمنهج القويم الديني والأخلاقي في الإحاطة بإطار هذا التشييد .
وينقل الشاب عن المرأة التي أحبها صورة لتلك العلاقة الهزيلة القاصرة بينها وبين زوجها.
فتقول : كان يأتي من عمله آخر الدوام الرسمي بعد الظهر ليجد المنزل واحة من الهدوء والسكينة وجوه يعبق بالطيب ، وكنت استقبله بابتسامة مشرقة أساعده بعدها في تبديل ملابسه ثم نتناول طعام الغذاء معا ، ورغم محاولاتي إزالة عبوسه ومداعبته إلا انه كان ينظر إلى كمن يريد أن يقول : اتركيني بالله عليك .
في سخرية تعودناها يدلف إلى غرفة نومه وأتركه لينام ويستريح بعدها ينهض ليسبح ، ثم يرتدي ملابسه في عناية واهتمام ويتعطر ليغادر المنزل دون كلمة حلوة أو حتى إشارة لمغازلتي أو بأدنى تعبير مجرد ملامح وجه منبسطة ضاحكة ، وكان أحيانا يفعل ذلك ثم سرعان ما يتغير وكأنه فعل فعلاً ينتقص من كرامته وشخصيته كنت حين أحادثه على الهاتف وهو مع أصدقائه وربما أسمع الضحكات والسعادة تغمره هو ومن معه .
كنت أقف طويلاً أمام المرآة لأجد مقابلي امرأة فاتنة الجسد فواره العاطفة ، وحين كنت أغادر المنزل للتسوق أو لزيارة الأهل كنت أرى العيون تجحظ تكاد تلتهمني بنظراتها الملتهبة .
وكان الشيطان يحاول نسج شباكه اللعينة من خلال وسوسات النفس مرات ومرات ، كنت اقترب فيها من السقوط وفي اللحظة الأخيرة كنت أفيق وأعود إلى رشدي والي وعيي وعقلي على أمل أن أجده يحتويني ويمنحني الأمن , كان ذلك يبدو بعيداً جداً وأملاً ضائعاً لا وجود له .
ومرت الأيام أنجبت بعدها طفلاً جميلاً ساعدني كثيراً على التحمل خاصة في عمره الأول خلال العامين الأولين.
وكنت أبدو دائماً أمام صديقاتي كأسعد النساء حتى أنهن كن يحسدنني على حياتي لكني كنت احمل مخزوناً هائلاً من المعاناة تزيدها قسوة تلك النظرات التي تهاجمني والكلمات الساحرة التي تكاد تذيبني وتعبث بمشاعري وعاطفتي كالسحر ، ورغم تلك المعاناة استمرت مقاومتي حتى جاءت تلك اللحظة الهائلة التي دقت قلبي ومشاعري بحربة قاتلة تلك اللحظة التي تأكدت فيها من خيانة زوجي لي في صورة من أسوا صور الخيانة والامتهان .
تلك هي اللحظة التي انهارت فيها داخلي كل مقاومة، وأنا الآن أشعر معك وكأني خرجت من أعماق بحر مظلم اختنقت فيه أنفاسي ، إنني أشعر بأني ولدت فقط يوم أن التقت راحة كفك وضغطت على راحتي حيث شعرت بأن العالم توقف ليبدأ ميلاد جديد لحياتي وعمري .
ولا أبالغ إذا قلت : إنني ورغم رؤيتي للأشياء من حولي أفقت لأرى الأشياء بشكل مغاير تماماً لما سبق ورأيتها عليه لقد ولد أمل جديد في حياة جديدة يملؤها السرور والسعادة .
لقد كنت عطشى يذبحني العطش حين أتيت أنت لترويني وتنقذني من هلاك وجحيم وغيظ قاتل.
ومن المؤلم أنه ورغم كل جوانب الحياة المادية المتوفرة لي إلا أنني كنت اشعر باختناق أنفاسي ، وأنني أعيش في صحراء قاحلة لا يرى بصري فيها سوى لون الرمال ، لقد كنت بالفعل اختنق لولا الطفلة التي من بها الله على لتمنحني صبراً إضافيا عزز مقاومتي بشكل ما حتى حانت لحظة لقائك أنت التي كانت زلزالاً هز كياني ونفض عني وحي غبار اليأس بل أكوام اليأس التي كانت تتراكم لتخنقها .
وأنا أعلم تماماً أن مشاعري رغم صدقها خاطئة تماماً فهذه العلاقة غير شرعية وتتنافى مع قيمنا وشرعنا وأعرافنا.

تحدثنا طويلاً عبر الهاتف كانت الروادع داخلي تمزقني ، لكن طوفان المشاعر كان هائلاً بالقدر الذي لم أتمكن من مقاومته . استوقفته تعاطفاً وسألته : ماذا تعنى بالروادع ؟

أجابني قائلا : ما أعنيه هنا هو عدم شرعية العلاقة ومنافاتها للدين والعرف وما يمكن أن تسفر عنه من نتائج مستقبلاً قد تؤثر على مستقبل أسرتي وأبنائي ومستقبلها الأسري أيضا .

وهنا قاطعته أيضا متسائلاً: هل لي أن أسألك سؤالاً يحمل بعض الخصوصية إذا سمحت لي ؟

هز رأسه - علامة الموافقة - وهو يبتسم ويردد مكررا بالطبع .. بالطبع تفضل .

قلت له: هل زوجتك دميمة أو قبيحة المنظر إلى هذا الحد الذي جعلك تندفع في هذا الطريق الوعر ؟

تنهد تنهيدة طويلة وهو يدير رأسه لينظر ناحية الأفق ويروح بعقله بعيداً وظل صامتاً حتى ظننته لن يجيب ، فلم أشأ أن اقطع عليه تلك اللحظة .

وبعد برهة لوى رأسه ونظر إلى وهو يبتسم في بؤس وقال: لا ليست دميمة أو قبيحة وهي على قدر من الجمال ربما أعلى من المتوسط.

ثم ابتدرني قائلاً : ما المغزى من سؤالك ؟

أجبته فوراً دون تباطؤ: أريد أنا شخصياً أن أجد سبباً ما من الأسباب

المادية لعلاقتك مع هذه المرأة التي تقول انك عشقتها.

قال لي: اسمع يا صديقي ! إنني أحترق من داخلي ولا تحسب أن الأمر هين على نفسي، فأنا أخوض صراعاً نفسياً داخلياً عنيفاً وهائلاً حتى إنني أتصور نفسي بين مطرقة الحب والرغبة وسندان الواقع الذي لا يخدع من زوجة وأسرة ويتم ودين وعرف، والمسألة ليست الجمال.. لا ! بل هي أشياء أخرى وتفاعلات عجيبة وساحرة لا يمكن تصورها أو وصفها داخل النفس ، بمعنى أنني لا يمكن أن أضع هذه المشاعر أو تلك التفاعلات في جمل مفيدة تجسدها بشكل يقترب على الأقل من الواقع ، وكما سبق وقلت لك أن زوجتي ليست دميمة أو قبيحة ، والأمر لا يقاس بهذا الشكل أو بتلك الصورة ، ومن الممكن أن اجتهد في التصوير أو في ترجمة هذه الانفعالات وتلك الأحاسيس فأقول مثلاً : إنني لا أشعر بسعادة مع زوجتي أو رغبة فيها جسدياً وحتى لو أتت تلك الرغبة فإنني لا اشعر بفرحة أو نشوة للقاء معها وللحقيقة فكرت كثيراً في ذلك وأتت النتيجة إنني لم أجد إجابة شافية داخل عقلي ولا ادري لماذا ؟

سكت قليلاً وهو يستطرد : إن القبح الحقيقي هو في تصوري ليس في الشكل أو تفاصيل ومقاييس أنوثة المرأة : إنه في جوهره الحقيقي يمثل سلوكاً شاملاً في حياة المرأة من حيث تعاملها كأنثى مع زوجها كحديثها وحواراتها وآرائها وذكائها ويحمل سلوكيات الحياتية إضافة -طبعا- إلى فهمها الدقيق الذي يجب أن يتميز بحس مرهف وذكاء أنثوي فطري في علاقتها الخاصة بزوجها .. اعتقد أنني بهذا الوصف ربما أكون قد اجتهدت بما يكفي للرد على استفسارك وفضولك.

كنت في تلك اللحظات التي كان يختم فيها مداخلته حول المرأة انظر إليه بتركيز معجبا بدقته وحسه الرفيع في الوصف والتقييم ومجمل الإجابة، ويبدو، انه لاحظ بذكائه إعجابي وانبهاري بحديثه هذا، فاندفع بشهية مفتوحة أكدتها تقاسيم وملامح وجهه للإفاضة حول هذا الموضوع وبصورة أكدت انه بدأ يتجاهل حواجز الحساسية في الخوض في تفاصيل تبدو في مجتمعاتنا. رغم أنها تتسبب في خلق المنغصات التي تعصف أحيانا بالاستقرار الأسري

وتتسبب في مشكلات عصية على الحل رغم ما يتصور البعض تفاهتها.

قال صديقي بعد أن أشعل سيجارته: دعنى أفيض قليلاً في موضوع القبح اقصد في بعض جوانبه وكيف يمكن أن يكون العكس تماما إذا ما فهمت المرأة بذكائها الأنثوي كيف تعالج هذه الجوانب خذ مثلا كيفية أن تبرز المرأة أجمل ملامح أنوثتها جسدا وصوتا وترتيبا وجمالا داخل المنزل في الوقت الذي تفهم فيه المرأة أن هذا وقت زوجها .

أي عليها أن تفهم بخبرتها خلال معاشرة زوجها ما الذي يسعده ويجعله في أعلى مراتب إحساسه الرومانسي ، ثم تعمل على الحفاظ بحزم على جعل هذه الأمور مستمرة وحقيقية ، ما الذي يريحه ويجعله في أعلى مراتب الأداء العاطفي والسعادة من حديث وإيماءات ومداعبات وجو دافيء ورومانسي داخل المنزل يهيئ لهما أن يتواصلا جسدياً وروحياً ، وان تحجب عنه كل ما يؤذي بصره ونفسه فيها ، هذا بالضبط ما قصدت الإشارة إليه والاقتراب منه إلى ادني درجة .

استوقفته بإشارة من يدي قائلاً: صديقي إنك رجل رومانسي تعيش بعقلك ومشاعرك في عصر غير عصرنا. انظر للحياة حولك لترى كم المشاكل اليومية الهائل الذي يواجه الرجل والمرأة على السواء من خلال عملهما ، فالرجل في عمله يأتي مثقلاً بأعباء مسؤولياته الوظيفية وأعبائه العائلية من رعاية أسرته وما أكثر أعبائها مالياً ونفسياً ! والمرأة بالطبع على اعتبار أنها الزوجة والأم تواجه تلك المشاكل أن كانت تعمل وان لم تكن كذلك فهي تواجه مشاكل التربية لأبنائها وبناتها ورغباتهم ولطرحتهم وأنت تعلم أننا نعيش في عالم معقد من العلاقات والثقافات والأفكار والرؤى.

نحن يا صديقي في عالم ربما ما بعد الانترنت أنا لا أدرى ما هو ؟ ولكنني أرقى بحريات التطورات في هذا العالم المجنون الذي حول الكره الأرضية إلى كرة قدم لا بل ربما إلى كرة مضرب ، ثم هل تنكر أن مسؤوليات تربية الأبناء هي مسؤوليات جسيمة قد تودي بالأسرة ومصيرها إلى المجهول أن لم تحسن تربية أبنائها ، أسأل بالتالي من يتحمل في مجتمعنا المسؤولية أو يتحمل العبء الأكبر من ذلك أليست المرأة ثم يأتي دور الرجل بعدها .

إن المرأة هي المدير التنفيذي لهذه المؤسسة الصغيرة في حجمها والعملاقة في اهتمامها من حيث كونها اللبنة أو الخلية التي يتكون منها مجتمع كبير ضخم بانتمائه الروحي والثقافي وبخصوصيته وهويته التي ينبغي الحفاظ عليها ثم تأتي أنت تريد أن تعيش في عالم الوهم من أجل رغباتك وشهواتك ومزاجك ولتبرر علاقتك بامرأة أخرى.

كان ينظر إلى بهدوء وإمعان وأنا مندفع في حديثي بحماس وما أن انتهيت من حديثي حتى فاجأني قائلاً: هنا يكمن التميز والتحدي بالنسبة للمرأة فهي إذا لم تستطع التعامل مع هذا التحدي فعليها أن تقبل اللعبة .

كانت دهشتي بالغة لحديثة فقلت له : انك بذلك تدعو المرأة أيضا إلى خيانة زوجها أليس كذلك ؟

قال صديقي وهو ينفث دخان سيجارته بعنف : معاذ الله إنك لا تعلم مدى معاناتي النفسية حول هذا الأمر ، ولكن ما قصدته هو أن توافق على أن يتزوج زوجها من أخرى يحبها في حالة فقدان الانسجام النفسي بينها وبين زوجها .

ابتسمت ابتسامة كبيرة كدت اضحك خلالها وقلت له: إنك تطلب المستحيل في هذا العالم ، اقصد في هذا العصر وتلك قضية خاسرة لن اطرقها معك ودعنا لا نخرج عن قضيتنا الأساسية خاصة حول ما انتظر سماعه منك حول لقاءكما الأول في منزلك بعد أن قبلت من زوجتك الدعوة لتناول العشاء .

مــرارة الحقيقــة

اتشح الأفق برداء قرمزي لف الكون وكأنه سار ترتديه حسناء بنجابية وانعكس لون الأفق على البساط المائي الممتد وكأنه بلا نهاية صوب الجافات البعيدة .

كان الغروب بسحره المذهل يؤذن بالنهاية وإسدال الستار لتحجب ظلمة الليل تلك البانوراما الساحرة وهذا المشهد العظيم فيما كانت مكبرات الصوت تبعث بنداء التكبير والتوحيد ليتردد صداه عبر الفضاء في رسالة معطرة إلى الكون بذراته ومخلوقاته مؤداها أن لكل شيء نهاية وانه لا دوام لشيء في هذا الكون سوى الله الخالق الأعظم الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى .

إلا أن هناك جانب آخر يصد داعي الشر والعصيان ذلك الشيطان المدعو إبليس عليه لعائن الله على أن يؤدي مهمته اللعينة الشريرة في إغواء البشر للولوغ في هاوية الرذيلة والعصيان وفاءً بقسمه على إغواء البشر وتزيين دروب الشر والخطيئة لهم .

كان الشاب يحاول تلمس السعادة الروحية الحقيقية بشتى السبل ، لكنه كان يشعر في قراره نفسه بتعاسة خفية وكأن تلك التعاسة والشعور بعدم الرضا كان نوعا من جلد الذات وعذاب الضمير ولم تفلح لحظات السعادة الحسية في الدخول إلى روحه أبدا .

كانت سعادة حسية مادية خارجية لم تنعكس على روحه أبدا رغم النشوة العارمة ولحظات اللذة الآثمة التي استشعرها ، وكان هناك صوت خفي داخله يصرح له في قرارة نفسه أن تلك المشاعر التي اجتاحته حين التقى بتلك المرأة لم تكن سوى حالة من الجوع الإنساني المادي الذي لا يلبث أن يخفت بمجرد إشباعه .

ومن نافذة غرفته المطلة على السيف بنخلاته المضيئة كان يرى الظلام دامساً في أفق من ديجور حالك مترامي وبلا نهاية .

كان المشهد قبل الغروب مختلفاً تماماً عما يراه الآن وكان الفارق هائلاً في وضوحه .

كانت الصورة والمقارنات على اختلافاتها تتسارع في مخيلته وكانت زوجته وأبناءه حاضرين دائماً خلال هذا الاستعراض اللامرئي داخل نفسه، لكنه محسوساً ويؤلمه بشكل متصاعد الحدة..

استلقى الشاب على فراشه الوثير بعد أن أطفأ أنوار غرفته وجلس يشاهد التلفاز، ولكنه كان شارد العقل غائباً في تفكير عميق ومتكرر النهاية.. كان يرى النهاية بأبعادها ونتائجها وكانت المحصلة في الغالب مأساوية.

وفي النهاية اعتدل على جانبه وسحب الغطاء وراح في نوم عميق بعد إرهاق جسدي وذهني كبير.

وفي الصباح كان المطار غاصاً بالمسافرين حين دلف صاخباً بحقيبته إلى قاعة الانتظار بعد أن أنهى إجراءات مغادرته، ولم يهدأ هاتفه الجوال، لكنه كان بارداً في مشاعره حيث كان الصراع داخل نفسه محتدماً حول هذه العلاقة الجارفة السريعة ..

كان هناك جزء داخله يتساءل عن سر هذا التغير المفاجئ الذي أصابه بعد لقاءها منفرداً ، ولم يكن صاحبنا يدري أنها صحوة ضمير يرفض الجريمة ويرفض الانحراف والانسياق خلف نزوة قد تنسحب آثارها على دينه وعلى دنياه فيخسر آخرته ويخسر زوجته وأبناءه وأحفاده .

جلس صامتاً فيما كان الهاتف الجوال يدق بشكل متواصل في جيبه،

ولم يكلف نفسه حتى عناء النظر إلى الرقم المتصل.

كانت القهوة قد بردت أمامه ولم يفق سوى على صوت المضيفة الأرضية تدعوه إلى الطائرة، نهض مسرعاً وكأنه يفر من مكان لا يطيقه.

وفي الطائرة شعر بنشاط يدب في روحه وعقله وبدأت صورة زوجته وأبنائه تتدفق إلى مخيلته ولم تمض ساعة حتى كان إلى جوارهم في منزله وزوجته تقف أمامه واجمة صامتة .

احتواها الشاب بين ذراعية قائلاً: أحبك.. أحبك .

سحبت نفسها برفق من بين يديه في دلال.. وقالت له معاتبة : لم أسمعها منذ زمن .

قال لهــا: ســوف تسمعينها دائماً منذ الآن شريطة أن تقطعي علاقتك بها.

استدارت ناحية الباب وكأنها لم تسمع وقالت له: اشعر بأني أريد تناول العشاء في الخارج.

قلت لصاحبي : لقد من الله عليك بفعل الصواب والرجوع إلى الحق في الوقت المناسب .

فختم صاحبي جلستنا بأن حمد الله واستغفره وهو يتلو قول الله تعالى : {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً} (الطلاق: من الآية5)

لقــاء حـول طاولـة العشاء

كانت ليلة طويلة بحق وربما كانت من تلك الليالي التي لا ينسى الإنسان ما ساوره فيها من هواجس وقلق وتفكير متضارب متناقض يرقى إلى درجة الصراع النفسي الحاد.

وكانت الهواجس حول لقاء الغد المرتقب تأخذني بعيدا إلى مجاهل وأغوار في النفس لم يرتدها عقلي من قبل بين أحلام وردية ، وآمال تصرخ بها رغبات نفسية لا أعرف لها معنى ولا تفسيراً وأخرى عبر محاذير ومخاوف من مستقبل لا أدرى له ملامح بل يكاد يكون غامضا في أبعاده ونتائجه .

وتدور في نفسي تساؤلات شتى وأنا أتقلب في مضجعي، ويبدو أن قلقي الذي ترجمت تمهيدات واضحة قد لفت انتباه زوجتي وهي بجانبي، فحاولت أن تتبين ذلك عبر ملامستها لكتفي بيدها ولكني لم أتجاوب مع حركتها فاستدارت وغطت في نومه العميق.

كان أكثر ما يثيرني تلك الأحاسيس الجارفة التي إنتابتني بعد لقائي معها في منزل العائلة برفقة والدتي وشقيقتي وزوجتي ، وتلك النظرات التي كانت تلتهمني وتنفذ إلى أعماقي لتثير الفوضى في مشاعري وأحاسيسي ، حيث كانت كل التفاتة تلتقي فيها عيناي بعينيها تحدث في قلبي ارتجاجا يكاد يسمع دقاته الجالسون بجواري ، وهذا كان يصيبني بالذعر الذي كان يزيد أيضا بدوره في ارتباكي .

كنت أشعر ولأول مرة بأن للعيون حديثاً ولغة لن يفهمها سوى الذين تعرضوا لمثل تلك المواقف ، وكان بداخلي يثور الصراع بين ما يجب وما لا يجب أن يكون ، بين المثل والمبادئ والقيم والأعراف وبين الرغبات والمشاعر الإنسانية الطاغية التي لا نستطيع تحييدها أو السيطرة عليها في لحظة ما ،

أو في موقف ما خلال حياتنا ، وهو ما فسرته بعد ذلك بالاتي :

إذا ما اختل التوازن الطبيعي ومال بصورة حادة في أي من جوانب حياتنا فإن جانبا آخر سيسود ويرجح ، وهذا أمر طبيعي وبمعنى آخر فإنه في مثل تلك الحالات إذا كان الإنسان الطبيعي المتزوج الذي لا يعاني من مشاكل مادية وهذا ما أردت أن أشير إليه بـ (اختلال التوازن على المستوى المادي) فإنه وفي الوضع الطبيعي لن يلتفت إلى السرقة مثلا ، ومن جانب آخر فإنه إذا كان يعاني من خلل عاطفي تجاه زوجته فإنه بالتالي سيعوضه مع أخرى إذا حانت الفرصة وهذا هو اجتهادي الشخصي وتفسيري للأمر .

قلت له وأنا أهز رأسي موافقا: يبدو منطقك معقولا في التفسير وأنا أقبله من وجهة نظر فلسفية بحتة، لكنه يظل خاضعا لتفسيرات أخرى كالشرعي وغير الشرعي مثلا وعموما دعنا نرى ما حدث خلال اللقاء.

قال صديقي مواصلا حديثه : لقد جافى النوم عيناي حتى الفجر وحينها غادرت فراشي وتوضأت ثم أديت الصلاة بعدها شعرت بالنوم يغزو جوارحي فاستلقيت في فراشي ، ونمت نوما عميقا استيقظت بعدها على صوت زوجتي وهي توقظني في حوالي التاسعة ، ورغم عدم كفاية ساعات نومي إلا أنني كنت اشعر بنشاط وراحة كافيين أكملتهما بـ (دش بارد) وتناولت قطعة تفاح صغيرة وكوبا من الشاي بالحليب .

وغادرت المنزل لمتابعة أعمالي ، لكني في الحقيقة كنت مشغولا وشغوفا في نفس الوقت وقلقا أيضا : هناك كانت زوجتي ترتب أمور منزلها وتستعد للقاء الضيفة خلال الساعات الأخيرة من نهار ذلك اليوم ، وحاولت أنا أن أتجاهل الأمر وأبعده عن ذهني وتفكيري قدر المستطاع لأحظى بهدوء الأعصاب وأزيل ما علق بأعصابي من توتر ويبدو أن التوتر أصابني ببعض الإرهاق خاصة إنني لم احصل على قسط وافر من النوم ليلة أمس ، وبعد الظهر حصلت على قيلولة هادئة استيقظت بعدها وأنا اشعر بنشاط وثقة .

وبعدها قررت أن اخبر زوجتي أنني لن احضر العشاء وذلك بعد تفكير عميق هادئ وبالفعل أدرت الحوار مع زوجتي حول هذا الأمر وكنت أيضا في قرارة نفسي أريد أن أسجل موقفا لصالحي أمام زوجتي ، وبعد حوار قصير أقنعت زوجتي حيث أفهمتها أني لا أريد أن أكون حاضرا معهم هذا العشاء حتى لا اسبب حرجا أو ضيقا لضيفتها .

وفي الخامسة مساء دق الهاتف ، كانت شقيقتي على الطرف الآخر وبعد حوار قصير وضاحك معها ناديت زوجتي وتركت لها الهاتف وغادرت المنزل متوجها إلى مكتبي الخاص وهناك أخذت اشغل نفسي بالعمل ما يستحق منه ومالا يستحق ، فرغم حالة الهدوء النسبي التي سرت داخلي إلا أنها سرعان ما كانت تقل وتتآكل حتى توشك على التلاشي ليحل محلها ذلك القلق اللعين وتلك الرهبة التي لا تستند على أساس اللهم إلا ذلك الغموض الكاسر الذي ولدته تلك المشاعر التي غزت روحي ونفسي حول تلك الضيفة التي الهبتني بحديث عيونها ونبضات قلبها التي أسمعتني إياها عبر المصافحة وتلك اللحظات التي أوشكت فيها على الوصل إلى حالة الإغماء جزاء نشوة تلك اللحظات .

وفي السادسة والنصف دق هاتفي الخاص وكانت زوجتي على الخط تخبرني بوصول الضيفة بصحبة شقيقتي وإصرارهما على وجودي معهن على العشاء، وحيث لم تتمكن والدتي من مرافقتهما لظروفها الخاصة.

تلعثمت قليلاً ولم أشأ الرد على زوجتي قبل أن أتمالك أنفاسي وحتى اهرب من تلك اللحظات أجبتها في عجالة أن لدى عملا مهما الآن ، وسوف أحاول الحضور إذا استطعت وأنهيت الحديث مع زوجتي .

كنت أكاد اسمع نبض قلبي وأنا اجلس على طاولتي في صمت وسكون ، في حالة من التجمد الفكري ثم حاولت جاهدا أن انظم تفكيري وان أخاصم تلك الحالة من الهلع الحارق للأعصاب وطلبت من احدهم فنجانا من القهوة السوداء القوية والمركزة ، وان هي ألا دقائق لا أظنها تجاوزت الخمس عشرة دقيقة فوجئت بالهاتف يدق مرة أخرى ، وما أن رفعت السماعة حتى جاءني أعذب صوت سمعته في حياتي ، كانت هي على الخط وبعبارات لن أنساها ما حييت ..

قالت لي ودون مقدمات وفي لهجة حاسمة ستأتي على العشاء

قلت لها : هل هذا أمر؟
قالت : هو كذلك أو اعتبره كذلك .
قلت لها: ما هذا الذي يحدث ؟
أجابتني قائلة : أنا اتسائل مثلك
قلت لها متسائلا بعد أن أدركت لغة الحوار من أي مكان تتحدثين
الآن ؟
اجابنتي قائلة : من غرفة المجلس
قلت لها : هل هناك احد يسمعك ؟
قالت : اطمئن شقيقتك وزوجتك معا مشغولتان في أمر ما بعيدا في المنزل.
قلت لها : هل اطلب منك شيئا ؟
قالت : في عذوبة تذيب الصخر.. لبيك
قلت لها وأنا ابلع ريقي بصعوبة ربما أدركتها عبر الهاتف: أخشى إنني لن استطيع إخفاء مشاعري ، هذا مالا أريده وربما أنت كذلك .
قالت والعذوبة لا تفارق نبرات صوتها: أنا أيضا أخشى ذلك، ولكن عليك أن تعلم أنني قبلت الدعوة من أجلك قلت لها بعد برهة من الصمت: انك لم تعرفيني من قبل ولم يسبق لنا حوار أو لقاء أو تعارف.
قالت دون تردد وبسرعة ودون تفكير : اشعر كأني أعرفك منذ طفولتي سأغلق الخط الآن لأن إحداهما تقترب . أنا في انتظارك، وأغلقت الهاتف دون انتظار للتعقيب، في تلك اللحظات شعرت بالروح تسري في أعماقي وبالطمأنينة تغشاني، زالت الرهبة من داخلي وشعرت بأن كل مقاومتي التي كانت تجسدها الهواجس ويعكسها القلق داخل نفسي قد ولت ولم يعد لها اثر.
شعرت بأنها تملكتني تماما واستحوذت على مشاعري وتغلغلت إلى أعماقي وبأنني أمام تجربة إنسانية هائلة التأثير والسيطرة والقهر والقدرة،
وان رهبة البدايات في علاقات حساسة من هذا النوع قد ولت، وعلى الآن أن أتجاوز بتفكيري ما بعد تلك المرحلة.
وهناك في المنزل كانت شقيقتي وضيفتنا برفقة زوجتي مشغولات بأمورهن وبأحاديث متنوعة تشغل في العادة اهتمام النساء ، إلا أن شقيقتي لاحظت أن صديقتها وضيفتها كانت تدير الحديث ببراعة وذكاء حول شخصيتي وعلاقتي الأسرية أو بمعنى آخر تحاول اختراق جدار الخصوصية حول تلك العلاقة لكن شقيقتي لم تكن تعلم بالطبع حقيقة بداية العلاقة الوليدة التي كانت على وشك الحدوث بينها وبيني .
انطلقت بسيارتي إلى المنزل وهناك جلسنا جميعا بعد تناول العشاء الذي لا اذكر أنني تناولت منه شيئا باستثناء بعض حبات الفاكهة التي أعقبت العشاء ، وشعرت خلال جلستنا التي أثنت فيها الضيفة على جمال ديكورات المنزل وبعض اللوحات الفنية بأنني متحدث جيد ، فقد أفضت في الحديث حول المشروعات الاقتصادية وعلاقة الركود في الاقتصاد العالمي وانعكاساته علينا بشكل مباشر أو غير مباشر .
كنت أرى الإعجاب والانبهار في عينيها وهي تتابع حديثي بشغف وفي نهاية الشهر وأمام زوجتي وشقيقتي طلبت مني رقم هاتفي الشخصي بحجة احتياجها لاستشارتي في بعض الأمور التي تهمها حيث تحدثت حول احد المشروعات الخاصة بالعلاج الطبيعي التي لازالت تدرسها والتي تنوي تنفيذها ، وكاد قلبي يقفز من صدري وأنا أعطيها بطاقتي المدون عليها كافة أرقام هواتفي ونظرتها المركزة والثابتة من عينيها الجميلتين ، وهي تنفذ إلى أعماقي أثناء تناولها البطاقة بأناملها البيضاء الناعمة الساحرة .
وكان اليوم التالي هو موعد سفرها المقرر إلى بلادها وتحديدا بعد الظهر، وقبل مغادرتها بصحبة شقيقتي التي أوصلتها إلى المطار اتصلت بزوجتي لتودعها بعبارات المجاملة التي تلزم في هذه المناسبات: كما ودعتها أيضا زوجتي بعبارات طيبة ودودة.
وما أن ودعت شقيقتي عند بوابة المغادرين وانتهت من إتمام إجراءات سفرها حتى اتصلت بي هاتفيا قائلة: شكرا على كرم الضيافة.
قلت لها: قدمي شكرك حول الضيافة لمن يستحق لذلك أما أنا فلا أستحق ذلك.
ضحكت وقالت ماذا تقصد ؟
قلت لها : أولا : دعينا أقدم لك الشكر لأنك لبيت دعوة زوجتي .
ثانيا : أقدم لك شكري على خلفية مشاعر طاغي بثتا عيناك في قلبي .
صمتت المرأة برهة طالت قليلا، ثم قالت: إنني من يجب أن تشكرك بنفس المعنى لكني في الحقيقة لم أكن اعلم انك شاعر وانك تستطيع أن تحمل الكلمات ما يجب أن تحمله.
قلت لها: في عمر الإنسان توجد لحظات تحول ربما كانت حاسمة في توجيه حياته وأخشى أنني الآن في إحدى لحظات التحول تلك.
قالت بصوت مخملي ناعم : من فضلك زدني من هذا الحديث بتفصيل أكثر .
قلت لها وقلبي يرتجف داخل صدري : هل تعلمين بأنني في اللحظة التي التقت عيناي فيها بعينيك شعرت بالأرض تميد من تحتي وكأنني اهوي إلى هاوية ليس لها قرار ؟
قالت وهي تتنهد وصوتها يزداد نعومة: وماذا بعد؟
قلت لها: هل تعلمين بأن نظراتك كانت قصائد عشق لا يتلقاها ولا يفهم إشارتها سوى قلب ومشاعر تتعطش للحب والعشق كما تتعطش الأرض القاحلة لقطرات المطر لتبعث فيها الحياة.

قالت وكأنها تتحدث من مكان بعيد وكأنها كانت تحلم: وماذا بعد؟
ثم أردفت: أرجوك لا تتوقف عن الحديث .. زدني أرجوك.
قلت لها: لقد منحتني في لحظة واحدة صكّا يبيح لي تذوق طعم حياة لم أعشها من قبل. لقد فجرت في أعماقي طوفانا جارفا من مشاعر نقلتني إلى عالم جديد لا ينتمي إلى عالمي الذي كنت أعيشه من قبل، ولم أكن أتخيل للحظة واحدة أن الحب يأتي بهذا الشكل المفاجئ العنيف..
صدقيني أنني اشعر بحالة غريبة من النشوة والعاطفة الجياشة.
لأول مرة في تاريخي الشخصي أعيش حالة حب إن كانت تلك المشاعر تعبر عن حقيقة ذلك الحب.
قالت وكأنها تغيب عن الوعي: أرجوك قلها ولا تتردد.. أريد أن اسمعها منك أنني اشعر.. عفواً لا استطيع التعبير فقط قلها أريد أن اسمعها.
قلت لها وكل ذرة في جسدي تصرخ بها: أني احبك.. احبك.. احبك.. احبك.
في تلك اللحظات كان المذياع الداخلي بالمطار ينادي على الركاب نداءه الأخير، وأنا اسمعه.
فقلت لها: حبيبتي انه النداء الأخير.
قالت: أتمنى لو لم تتحرك عقارب الساعة.. أتمنى لو ظلت كلمات الحب تخرج من شفتيك لتشنف أذني بقية عمري ثم أردفت سوف انتظرها وأعطتني كل أرقام هواتفها وودعتني بقبلة رائعة ولم تغلق هاتفها حتى جلست على مقعدها في الطائرة.
اجتاحتني نشوة عارمة وحالة من السكون الداخلي العميق بعدها بدأ عقلي ووعيي ينشط شيئا فشيئا، وبدأت أسئلة كثيرة تتداعى إلى وعيي مما حد كثيرا من نشوتي..
كانت أسئلة تعبر عن صوت العقل والمنطق تكتنفها مسئوليات ضخمة ومحاذير قوية، فلو أنني نحيت وضعي الشخصي والاجتماعي ومسئولياتي تجاه تبعات ما يحدث جانبا على اعتبار أنني رجل فلاح ولدي أطفال وأسره وكيان اجتماعي يحوط كل ذلك إطار ديني وأخلاقي.
وعلى الجانب الآخر فحبيبتي أيضا لديها مسئوليات وكيان وأسره
إضافة إلى أن وضعها أصعب من المنظور الاجتماعي لكونها امرأة خاصة ما يتعلق بسمعتها وسمعة أسرتها. إن الرجل في مجتمعاتنا وفي مثل هذه الحالات يكون وضعه أيسر حالا وأسهل من خلال علاج ما ينظر إليه انه خطأ.
وفي نهاية الأمر وصلت إلى قناعة انه يجب أن انحي هذه الأفكار جانباً، فأنا الآن اشعر بأنني اسعد البشر مع نشوة هذا الحب الجارف وهذه المشاعر التي تدغدغ أحاسيسي...
نعم لقد بدأت حياة جديدة لها طعم جديد يشعرني بأنها الحياة الحقيقية في ظل امرأة تدفع في شراييني طاقة هائلة للحياة، وما أعظم الفارق بينها وبين زوجة لم اشعر للحظة واحدة برغبة حقيقية من السعادة معها!

اللـــــــــقاء

كان المنزل الكبير يشهد في ذلك المساء حركة غير عادية من خلال أنواره المضاءة حين ذهب الصديق الشاب كعادته كل مساء ليجالس والدته قليلاً، ويمضي معها بعض الوقت وبخاصة أن تلك العادة تأصلت وأصبحت مقدسة بعد ما مرضت الوالدة وأصبحت سلواها في رؤية أبناءها وبناتها بصورة شبه يومية.
وكانت ابنتها الصغرى التي أضحت طبيبة قد استقبلت إحدى صديقاتها التي جاءت كضيفة كريمة من ذلك البلد الشقيق بعد أن وجهت لها الدعوة لقضاء بضعة أيام هنا بعد سنوات قضتها الابنة الصغرى في جامعة مدينتها ربطت خلالها والأيام بينهما بصداقة متينة.
وكانت غرفة الاستقبال تضم خلال تلك الأمسية الأم وبناتها وضيفتهن حين دخل الشاب وزوجته ليتلقي الجميع وحين فوجئ بوجود الضيفة أراد التراجع ولكن الوالدة وشقيقته أصرتا على دخوله وان هي إلا دقائق قليلة ومن خلال بعض الدعابات الأسرية المعتادة حتى ذاب الجليد الذي يغلف بدايات اللقاء في مثل تلك الظروف وبدأت أحاديث متنوعة بين السياسة والطب وغيرها، لكنه شعر بغصة هائلة تجتاح قلبه، ورجفة تكاد تسيطر على جوارحه
حينما التفت عيونهما معا خلال تلك الجلسة.
يقول الشاب: شعرت بان تلك المرأة خلقت من اجلي وبأنها النموذج الذي كانت روحي تبحث عنه.. شعرت وكأنني رايتها في طفولتي وتمنيتها في خاطري..
كنت اختلس النظرات إليها، وفي كل مرة أتمكن من ذلك أفاجأ بأنها أيضا وكأنها تختلس تلك النظرات في نفس التوقيت حيث كانت تلتقي عيوننا في نفس اللحظة، وكنت كل مرة تلتقي فيها عيناي بعينيها اشعر بكياني كله يرتج وكأن زلزالا يجتاحني..
كنت أرى في عينيها ابتسامة غريبة تجمع بين الرغبة والهمس والكلام. كانت تقول بنظراتها شيئا ما وحين كنت أقاوم في داخلي تلك الأوهام كنت أفاجأ بان مقاومتي تزداد انهيارا.
وخلال مقاومتي كنت انظر إلى زوجتي وكانت تلك النظرات إلى زوجتي تزيد من مشاعري المرتجفة تجاه الضيفة حيث كان الفارق في الأحاسيس والمشاعر يزداد ويتسع بين زوجتي وتلك الضيفة. ولم يكن هناك بد من الاعتذار للمغادرة قليلاً بحجة تدخين سيجارة في محاولة لقمع تلك المشاعر، وبرغم المحاولات لإثنائي عن الخروج من الغرفة إلا أنني تمكنت من الخروج إلى الشرفة وأشعلت سيجارتي وأنا اشعر كأنني كنت أقاتل في ميدان المعركة.
وحصلت أخيراً على استراحة قصيرة التقط فيها أنفاسي كان عقلي يعمل بكل طاقته محاولا الحصول على أجوبة شافية وكأن هناك داخل نفسي من يتساءل:

ما الذي يحدث؟
وماذا دهاني؟
هل جننت؟
كنت أحاول خلال مقاومتي أن اقنع نفسي بان تلك مجرد أوهام لا أساس لها من الواقع، ويجيب جانب آخر من عقلي:
وما سبب تلك النظرات التي تغني عن أي حديث؟
وما سبب تلك الرجفة الغادرة التي أودت بقلبي وزلزلت كياني؟ وما سر هذا الإحساس الرهيب؟
كنت كالمراهق الذي لم يلتقي بامرأة من قبل وفجأة وجدها أمامه تلهبه بنظراتها المحمومة. وتغزو قلبه بسهام رغبتها..
كان الصراع هائلاً داخلي فأنا في النهاية رجل متزوج ولدي طفلان بارك الله لي فيهما.
وبدأت المقارنات داخلي وتوالت صور حياتي الزوجية الباردة الخالية من أي مشاعر دافئة وزوجتي تلك التي تزوجتها بصورة كلاسيكية تقليدية حيث لم يتمكن أي منا لا أنا ولا هي حتى من اللقاء أو حتى الذهاب معها لتناول العشاء والتنزه معا لقليل من الوقت.
كانت الصور تتوالى متصارعة تستعرض أسلوبها وحديثها وطريقة تعاملها.. كل التفاصيل الصغيرة بين الزوج وزوجته هذه التفاصيل الصغيرة التي لا تعطيها المرأة أهمية.. اصغر التفاصيل وأتفهها في أدق خصوصيات العلاقة الزوجية التي تعتبر في حقيقتها في غاية الأهمية لرجل رومانسي يشعر بان المرأة ليست جسدا فقط وليست الرغبة الطبيعية هي ما يجمع الرجل بالمرأة.
بل ذلك الحس الخطير الذي يتمثل في لقاء الروحين معا.. تلك التفاصيل لأشد دقة في فهم شخصية الرجل وكينونته وشكل رغباته وكيفية تحقيق الزوجية تتسيد إدارتها المرأة.
نعم .. أنا أظن أن المرأة هي المدير الحقيقي وهي سيد الإدارة للعلاقة الزوجية وطريقة الزوجة هي التي تؤدي في نهاية الأمر إلى النجاح أو الفشل في تلك العلاقة.
قلت له مقاطعا لحديثه: إن ما تقوله حسب فهمي يعني أن على المرأة أن تهتم بالجانب الخاص بالعلاقة الزوجية الخاصة فقط وأنها بهذا المفهوم مسئولة كلياً عن ذهاب الرجل بعيداً في علاقات أخرى غير مشروعة، وما تؤدي إليه هذه العلاقات من نتائج سلبية قد تنعكس بخطورتها على البنيان الأسري. لكن أليس للرجل دور هام وخطير في الحفاظ على سلامة الأسرة وصيانتها.
أشار صديقي بيده قائلاً: انه يأتي في المرتبة الثانية وأؤكد لك بقناعة تامة أن دور الرجل الرئيسي هو الدور الخارجي أي : إدارة شئون الأسرة وحمايتها وتأمين حياة أفرادها.
ثم توقف لبرهة كمن يستجمع أفكاره قائلا: انه بمثابة النوخذة أو ربان السفينة الذي يدير حركتها بموجب حالة البحر والطقس ببراعة شريطة أن يحافظ من هم بداخل السفينة على سلامتها الداخلية وعدم تخريبها، وبمعنى آخر ماذا يفعل النوخذة أو الربان إذا خرق احدهم هيكل السفينة أو دمر محركها؟ بالطبع لن يستطيع الربان فعل أي شيء سوى أن يقفز أخيراً خارج السفينة ويلقي بنفسه إلى الماء أو أن تنقذه سفينة أخرى وتبقى السفينة الأولى التي كان يقودها مجرد ذكرى ربما مؤلمة يجترها عقله بين الحين والآخر إلى أن تتحول إلى نقطة ضئيلة في محيط الذاكرة لا تكاد ترى.
أعجبني تفسيراته الفلسفية إلى حد ما، ولكني قلت له: انك بذلك تضع الرجل في صورة ربان سلبي تماما لا يهتم بما يجري داخل سفينته والمفترض قطعاً انه مسئول كلياً عن سفينته من الداخل والخارج ثم أليست هناك تضحية من جانب الرجل وهي قيمة رفيعة يجب أن يتحلى بها الرجل؟
تنهد صديقي تنهيدة قوية وهو يشيح بوجهه ناحية الأفق فوق مياه الخليج ثم هز رأسه قائلا: يا صديقي.. إن معنى التضحية هو أن تتنازل عن أشياء تملكها سواء كانت معنوية أو مادية. لكن كيف تضحي بما لا تملكه؟ إنني لا املك السيطرة على مشاعري وأحاسيسي حيث اشعر بان عقلي وقلبي وكياني منجذب تماما وبقوة لا استطيع ردها إلى تلك المرأة التي لم أكمل لك قصتي معها بعد..
إنني اشعر وكأنني كنت في رحلة عن نفسي.. عن توازني.. عن استقراري.. عن حياتي الحقيقية وذلك منذ ولادتي وفتحي على الحياة وأخيراً وجدتها.. نعم! وجدتها في تلك المرأة التي اختزلت كل رغباتي وأمنياتي وحياتي فيها.
قاطعته قائلاً: دعنا نكمل القصة: كنت أقف في الشرفة استقبل الهواء المنعش عله يهدئ من روعي، وكان حوار ما يجري بداخلي حول شرعية هذا التفكير وتلك الأحاسيس، وكنت أحاول إقناع نفسي بأن ما يجتاح مشاعري ليس سوى وهم أو مجرد حلم يقظة أو حتى ربما كان ثمة انحراف في طريقة التفكير. لكن قلبي ومشاعري كان لها رأي آخر.. نعم! كانت تأبى أن تتبسط في تقييم ذلك الأمر.. كانت تصرخ داخلي نعم كان صراخا أكاد اسمعه داخلي.
فكرت ألا أعود إلى غرفة الاستقبال مرة أخرى وإذا بي اسمع من خلفي شقيقتي وهي تناديني لمشاركتها القهوة وحيث الضيفة تريد الاستفسار عن بعض الإجراءات والأمور الرسمية والمشروعات.
استجمعت قواي ودلفت إلى الغرفة وكأنني كنت أتمنى ذلك، ويبدو إنني نجحت إلى حد كبير في إخفاء مشاعري حيث لم يلحظ احد منهم شيئا وهذا ما بدا لي، لكنني كنت اشعر براحة هائلة وأنا أتحدث معها حول استفساراتها. لكنني كنت اشعر شعوراً خفياً أنها تبادلني نفس الأحاسيس ولو بشكل غير مؤكد، وكانت زوجتي تشارك في الحديث بشكل أو بآخر وبالطبع كنت أفسح لها المجال.
وبعد العشاء امتدت الجلسة في أحاديث متنوعة ولكنني كنت ميالا للصمت إلا أنها كانت بين الفنية والأخرى توجه الحديث صوبي بطريقة ذكية وكانت نظراتها لي تقتل داخلي أي مقاومة للمشاعر التي اجتاحتني..

وفجأة وجدت زوجتي وهي توجه لها الدعوة للعشاء في اليوم التالي في منزلنا وقضاء الجزء الأخير من اليوم عندنا نظرت إلى الأسفل وتركت الأمر دون تدخل مني، وكنت انتظر موافقتها على دعوة زوجتي ونفسي متوقف وبالفعل وافقت على قبول الدعوة.
وأثناء المغادرة وبعد أن صافحت زوجتي فوجئت بها تمد يدها لتصافحني وكانت زوجتي في تلك اللحظة تصافح والدتي وشقيقتي والتقت يدانا في عناق تعجز كل ألسنة الشعراء عن وصف ذلك الحديث الصامت بين راحتي الكفين، وكاد الدم يتفجر من وجهي في تلك اللحظات الدافئة التي دامت راحتنا فيها متلاصقتين من الوقوع في حالة إغماء.
وبصعوبة بالغة تمكنت من السيطرة على أعصابي وحواسي والحفاظ على صورتي الطبيعية من خلال الإسراع في المغادرة حتى إنني لم أتمكن من تقبيل أمي على رأسها خلال الوداع كما هي العادة، وخلال ذلك لحقت بي زوجتي وكنت قد صعدت بسرعة إلى السيارة خلف المقعد خشية أن تلاحظ زوجتي أي تغير على ملامح وجهي انطلقت بعدها وزوجتي بجانبي صامتة الأمر الذي أقلقني وأحسست بغصة بلعت على أثرها ريقي وقلت لها: الم نتأخر قليلاً على الأولاد؟
أجابتني قائلة: لا تقلق إنهم برفقة الخادمة.
وفي محاولة مني لتجنب الاهتمام أو الخوض في حديث عن الضيفة وللابتعاد عما دار من أحاديث خلال الجلسة..
قلت: إنني لا أثق كثيرا في الخادمة فهي كثيرة الامتعاض والتذمر من الأطفال أدارت زوجتي وجهها إلي في شيء من الانزعاج، الأمر الذي طمأنني إلى أنها لم تلحظ أي اهتمام مني بالضيفة...
وقالت: لا تقل ذلك حتى لا تقلقني فالخادمة طيبة وتحبهم كثيرا وخلال دقائق قليلة تبادلت أحاديث متنوعة وخلالها أشارت زوجتي إلى أن الضيفة قد استولت على اهتمامها بثقافتها وشخصياتها وبالطبع كان ردي جافا حول تلك الملاحظة..
كانت الشوارع المضاءة بالمصابيح الصفراء ولافتات المحال التجارية والبنوك واستدارة طريق الكورنيش تصنع بانوراما رائعة الحسن، وكان يجتاحني شعور طاغ بالانتعاش خاصة بعد أن تيقنت من عدم تسلل أي شعور بالقلق إلى زوجتي وذلك الغد الآتي الذي يثيرني غموضه وما يحمله من أحداث ستغير مسار حياتي ربما وهذا هو الشيء الوحيد الذي كنت أخشاه.